

تیبو دو سان بول

لا تنس أن تحيا

رواية

الترجمة من الفرنسية
إيمان خبير ساتي

النسخة الفرنسية : دار نشر ألبا ميشيل 2004

جسيم الفصول التأهيلية ... الدراسة ... التفوق لدرجة تنسى معها "أن تحيا" ... تعلم كل شيء و
عدم العلم بأي شيء ... سواء كان عنك أو عن الآخرين ...
يكتشف شاب صغير ، باندھاش بالغ ، خلال إقامته و دراسته لمدة عامين بالفصول التأهيلية بمدرسة
داخلية بريف باريس ، ميكانيكية عالم مختلف . كطفل وقع في الفخ ، يحاول خلسة ، كسر العزلة التي
يعيشها . كلمة ... إيماءة ... نظرة متبادلة مع كانتان و تنشأ بداية صداقة سرية بينهما . إن المعاناة
صامتة داخل ممرات الفصول التأهيلية ، حيث يتم تأهيل صفوة الأمة .

لا تنس أن تحيا : الرواية الأولى لكتبتها تيبو دو سانت بول . تتألف من 180 صفحة و اثنين و
ثلاثين فصلاً . قام المؤلف باختيار الفصول الأول و الرابع و السابع و العشرين للترجمة .

"إذن ... بسببك أنت ، إن لم يكن لأجلك ،
أكتب. و لأن لي الحق في قول كل شيء -
و لست أملك سوى هذا الحق - سأضيف
الآتي : هذه الكلمات التي لن يفك شفرتها
سواك و لن يفهمها غيرك ، أنا أوجهها
لآخرين سواك."

إيلي ويسيل
وصية شاعر يهودي مقتول

نظرة أولى (الباب الأول)

"أنا لا أستطيع أن أكون قديساً ، بل
مهرجاً ... قد أكون مهرجاً ... و
مع ذلك ، بل الأحرى ألا أقول مع
ذلك ، (إذ أنه لا توجد حتى الآن
أكذوبة أكبر من القديسين) فالحقيقة
هي التي تتحدث عبر فمي. لكن
حقيقتي قاسية ، إذ أنه في الوقت
الراهن تم تعميم الكذب على أنه
حقيقة."

نيتشه

"لم أنا مصير"
إيسي أومو

لقد انقضى الصيف. و عرفت أنت متع من اجتاز امتحان الالتحاق بالجامعة. نصف دزينة من
الامتحانات جلست لها في مبنى قديم. أخضر ضارب إلى الزرقة. عرفت قلق أيام ظهور النتائج. قلق
القوائم اللانهائية التي يبحث فيها المرء عن اسمه. لقد حصلت بجدارة على تقديرك. لكن ذلك كله لا
شيء. أنت تعرف ذلك. إنه ليس سوى بداية لأزمان أكثر صعوبة حيث سيكون لزاماً عليك مواجهة
دراساتك العليا ، بعيداً عن بيت العائلة. لقد عرفت متع الشاطئ. مغيبات الشمس. كنت مدركاً بأنك
ستتفقد كل ذلك و أنك ستندم على هذه الحياة الخالية من الهموم ؛ التي كانت حياتك حتى ذلك الوقت.
رمال ... قبولة ... سهرة ... لقد انقضى الصيف.

ها أنت ذا تتوجه للمدرسة الداخلية. الريف ينساب خلف زجاج السيارة. كل شيء شديد الاختلاف،
شديد الغرابة. قد تعود هنا يوماً ما و قد انتابك الحنين إلى هذا المكان. كيف لك أن تعرف أن بإمكان
مكان ما أن يترك أثراً على حياتك ؟ السيارة تنطلق بلا هواده نحو وجهتها. أنت لا تعرف ما دفعك
لاتخاذ هذا الخيار. خيار غير مؤكد لكنه محتمل. هنالك قرارات تبتلع حياةً بأكملها. يدك ترتجف و
أنت تقلب النشرة التي أرسلتها لك المؤسسة. تريد إعادة إغلاقها لكن قوة مبهمة تمنعك من ذلك. كلما
نظرت إليها ، تقنتع أكثر بأنها ليست لك. أنت لم تخلق لذلك. و مع ذلك فقد فات الأوان. صار لزاماً
عليك أن تدخلها : هي ليست سوى مسألة دقائق. لقد أخبروك عنها مسبقاً ، بالطبع ! و كيف لا ؟ لكنك
تريد تكوين فكرتك عنها بنفسك. فقبل كل شيء ، هي حياتك ، اختيارك !

تنتهد. إن المثير في القمم هو الصعود الذي يتيح فرصة الوصول للمجهول. ما الذي تقترحه عليك
هذه السطور إن لم يكن منظور الاستكشاف و نشوة العلا ؟ ما أروع أن يتأمل المرء غروبه من عل !

و أنت لا تزال شاباً ! لكن التعب ؟ و المعاناة ؟ أجل ، إن الأمر لن يتم بدون الآم أو خوف. لن يتم بدون خوف.

أنت تسير نحو تلك المدرسة التي ستنام فيها هذا المساء. ما الذي تفكر فيه إذن ؟ أخائفٌ أنت ؟ خائفٌ من كل ما سيصيبك. من كل هذه التغيرات التي عصفت بطفولتك. لقد عشت من قبل هواجس الليلة التي تسبق اليوم الأول في المدرسة. لكن الآن ، الأمر يختلف. أنت تسير مباشرةً نحو المجهول. كل شيء هنا شديد الاختلاف ، و شديد الرهبة.

السيارة تصل إلى وجهتها. قلعة. حديقة. موقف سيارات. لقد وصلت. عليك بالخروج. عليك فتح الباب و المغادرة. تعانق والديك و تدخل المبنى. تكتشف الداخلية الموجودة بالطابق الثاني بالمدرسة القديمة. تسير بمحاذاة حوائطها المزلة التخشينة و جدرانها الباهتة حتى تصل لغرفتك. إنها في وسط الممر. تلقي نظرة أخيرة حولك ثم تدخل في القفل المفتاح الذي أعطاه لك مسؤول الداخلية قبل لحظات. إنه مفتاح أمان أشبه بذلك الذي تغلق به خزائن المصارف. هو طويل و مسطح و ينتهي بطرف محزّز. لم يسبق لك أن حملت مثله بيديك من قبل و حركاتك تبدو نوعاً ما خرقاء. تدير المفتاح في القفل لكن لا شيء يحدث. فجأة يلج المفتاح بكامله داخل القفل و يدور نحو اليسار. يفتح الباب.

أنت لم تحصل على إحدى تلك الغرف الصغيرة المخصصة لطلاب السنة الأولى بالسكن. لقد كنت محظوظاً : زرانتك هي أقل الغرف ضيقاً بالممر. إضافة إلى ذلك فنافذتها تطلان على الفناء و أشجاره الضخمة. تلمح في الركن العلوي الأيمن قاعة الدرس التي يتوارى بابها تحت الباحة. حوائط غرفتك الرمادية تكشف في بعض الأماكن عن بقع بيضاء ، آثار شبابها الغابر. الأرضية مغطاة ببلاط بلاستيكي. تحت النافذة يقبع مكتب كبير و كرسيان. لم كرسيان ؟ لا تملك أدنى فكرة عن ذلك. تستدير على يسارك و تتأمل السرير. أول ما يتبادر إلى ذهنك أن تترك نفسك ترتمي عليه. أهو مريح ؟ لقد كنت تتوقع حواشي اقل قسوة. لحسن الحظ أن من شغل الغرفة قبلك حرص على وضع لوح خشب على الفرش ليصبح الوضع أقل تهتكاً و رخاوة. ستصير لياليك هانية.

على الجانب المواجه للسرير ينتصب دولا ب من الخشب الخفيف الأزرق اللون. بابه المستقيم متخلخل. إن هذه الكدمات تخلق نوعاً من التشويه الذي يتماشى جيداً مع بقية المكان. بعدها تتجه لآخر عنصر من عناصر مسكنك الجديد : حوض حقيير و صغير لغسل اليدين يختبئ خلف الدولا ب. المياه التي تنساب منه تميل للصفار. أن لن تشربها. تستدير لوسط الغرفة. كم من الأجيال أصيبت بالاكتئاب داخل هذه الجدران ؟ كم منهم حلم بشنق نفسه من على مصباح النيون الذي يغطي الغرفة بنوره الجليدي ؟ تنظر لغرفتك بنظرة قلقة. هذا القبح المحيط جديد بالنسبة لك. و مع ذلك عليك بالعيش فيه. من الآن فصاعداً مسقط رأسك بعيداً للأبد. أنت وحدك. وحدك في مواجهة هذا الدولا ب الذي ينظر إليك بحزن. أنت تملأه بملابسك و على رأسه تضع حقيبة سفرك. تجلس على سريرك. أنت هنا.

لكن عليك النهوض في الغد لتحارب. تستلقي. لكنك لن تنام. رهبة أم إثارة ؟ لا يهم. تقفز من سريرك باكراً ، قبل الوقت الذي نويت النهوض فيه بقليل. ترتدي الملابس التي جهزتها بالأمس إجابة على

السؤال الكبير : ما الذي سأرتديه ؟ لقد قررت بعد عدة ملاحظات أن ترتدي قميصاً و بنطالاً محايدين. نظيف ، لكن ليس بالغ الأناقة. حتى لا تلفت الأنظار. ما الذي كنت تفكر فيه حينها ؟ في لا شيء. في طفولتك ، في مستقبلك ، في والديك ، في حقيبتك المثقوبة. كل شيء يبدو لك بلا جدوى. أنت وحيد. لقد قابلت بالأمس واحد أو اثنين من زملائك في الممر. كانوا يسرون بخطى مترددة و قد اندسوا داخل مغاراتهم ما أن أخرجت رأسك من شق بابك. تسمع أحياناً أصوات صدمة ، سقوط ، مطاردة. لكن هذا الوجود لا يحمل اسماً ، إنه غريب. هو يزيد من وحدتك. بأي دافع و أي حجة تصل إلى الآخر ؟ مجرد أن تقول له صباح الخير أمر فيه شبهة. أوتجرو ؟ تبتلع كعكتين داخل غرفتك و تقرر التجوال بالمدرسة حتى تحين البداية.

تهبط السلم الكبير الذي تتيح فتحاته فرصة النظر للقلعة التي تحازي المدرسة الثانوية. ممرات. حديقة. موقف سيارات. و تسير نحو قاعة المحاضرات. تصل مبكراً. تعبر الممرات المظلمة التي تقود للساحة. بذا تصل لفناء المدرسة غير البعيد عن مدخل المبنى. عليك بالصبر ثلاثون دقيقة قبل المواجهة. أنت لست وحدك. طلاب آخرون سقطوا من أسرّتهم يقبعون بعصبية أمام الباب. لا أحد يتحدث مع الآخر. إن اللحظة بالغة الأهمية. بالغة الثقل. قريباً ستفتح المدرسة أبوابها و ستنفرج الأشجار عن جحفل من الشباب المذعورين الذين يقطعون في صمت الممر المؤدي إلى قاعات الدرس. وحدك و سط هذه المسيرة الجنائزية ، تحس بنفسك ضائعاً. إنهم يدفنون طفولتك ! فيم تفكر ؟ من جديد هذا السؤال ... إن استطعت فقط أن تتوقف عن طرحه لنفسك ، فقد تتضح لك الرؤية في خضم أفكارك تلك ... الآن تطرح عن رأسك كل الأفكار. لكن ها أنت ذا أمام باب القاعة 5.

أنت ترتجف. تعتقد أن ردة فعلك هذه غبية. غير أن هنالك أشياء لا يستطيع المرء السيطرة عليها في تلك اللحظات. ظل الطلاب يتجمعون أمام الباب. بيتسم لك ولد شاب ذو عيون خضراء. ثم تتوقف لحظة تحت السقيفة و تتأمل الغرفة. بضع و خمسون شاباً لا يبدون أقل قلقاً منك قد استقروا بداخلها. أنت تجلس قرب الولد. هو يخرج ورقة و قلماً. تصنع مثله. الصمت يسود المكان.

فجأة يدخل رجل أشقر طويل القامة إلى القاعة. قميصه البني المفتوح الأزرار يكشف عن جهاز عضلي طاغي. يتأمل خريج كلية العلوم التقنية السابق هذا مستمعيه من على برج سنواته الثلاثين. يستقر على المنصة و يقدم نفسه على أنه أستاذك لمادة الرياضيات. إنه يتوجه مباشرة نحو الهدف. إن السننين القادمين ستكونان قاسيتان. و مع ذلك ، ففي أي مرحلة من مراحل العمر يكرس الإنسان كل وقته للذكاء. ؟ أعتدما يكون أماً لثلاثة أطفال ؟ أم عندما يكون رئيس شركة طار النوم من عينه ؟ أو ربما عندما يقابل الحب الأكبر ؟ كلا. إن نظام الفصول التأهيلية يلتقطك عند خروجك من عالم الطفولة قبل أن تستيقظ فيك مرحلة النضج و قبل أن تتذوق ملذات الحرية.

إذ أن عليك التخلي عن حريتك. إن العلم هو أكثر العشيقات غيرة ، أليس كذلك ؟ سيكون رفيقك الحصري و الوحيد لكنه سيجزيك بالمقابل ، إذ أن متعه هي أكثر المتع التي ستعرفها طوال حياتك كلها عنفاً و لذة. و كيف تشك فيه و أنت لست سوى في العشرين من عمرك !

أستاذك لمادة الرياضيات يعلمك بأنك هنا للتحضير لامتحان. لقد وقع اختيارك على قسم يتيح لك فرصة ممارسة الفلسفة مثل التاريخ أو العلوم الاجتماعية. عليك التفوق في كل شيء لتتجح. دراسة ... واجب ... اختيار. وحدك ، لن تستطيع القيام بذلك. عليك أن تدرس لكن مع الآخرين. ستستعد للامتحان لكن مع الآخرين. و يختتم الأستاذ حديثه قائلاً : "على كل حال ، بنهاية العام ، لن ينتقل إلى الصف التحضيري سوى نصفكم". فقط بضع و ثلاثون طالباً سيتم اختيارهم و قبولهم للسنة العليا. لقد نجح الأستاذ بجملة واحدة في خلق التوتر الذي سيطبع الشهور العشرة القادمة. راضياً عن هذه الخاتمة التي قدمها ، يلملم حاجياته و يدعوكم للانضمام إليه في هذه القاعة بعد الوجبة. لغط في القاعة. الكل يهرع نحو المخرج.

تصعد من جديد لغرفتك. و حدك. صمت ... تنهدات ... فجأة تحين لحظة اكتشاف المقصف. تترك فرشك و تنزل إلى غرفة الطعام. صف انتظار مستطيل يغطي مدخلها. يجب الانتظار حوالي العشر دقائق كما هو الحال يومياً. و أنت جائع. جائع جداً. يبدو هذا الانتظار في كل مرة و كأنه لن ينتهي. متعة الطعام هي إحدى المتع النادرة التي تبقت لك. لكنك لا تعرف بعد إن كنت ستجد ذلك هنا أم لا. الطعام لا يصلح للأكل. لقد تم تحذيرك. لكنك جائع. جائع جداً. فتأكل إذن. أحياناً ، خلال شهور الشتاء ، تستسيغ حساء الزعيم أو حساء بعض البقوليات. لكن هذا لن يكفي ليعطي معنىً لأيامك.

تحين ساعة العودة للقاعة بتراخ. يختفي الرياضي العظيم و يترك المجال لزملائه. عندها يبدأ طابور عرض مختلف الأساتذة. أستاذة التاريخ تطرح عليك المنهج. إنها سيدة طويلة القامة ترتدي ثوباً مزهراً يمكنها من ارتياد الصالونات الباريسية. هي لا تعيش إلا لأجل طلابها الذين تحقق من خلالها أحلامها بالعظمة. إنها تركز على كل ما يجب عليك إنجازه لاحقاً بينما يبدو الحديث عن ذلك مبكراً في نظرك : خلال عامين عليك معرفة المفاهيم السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية منذ عهد فرنسا الاشتراكية و حتى يومنا هذا ، معرفة تامة. إضافة لذلك عليك معرفة تاريخ الولايات المتحدة و روسيا و ألمانيا و الصين منذ نهاية الحرب العالمية الأولى. ستقوم خلال ستة ساعات بتحرير موضوع مختار من هذا المنهج. تضرب الأستاذة مثلاً بموضوع العام الفائت "الجمهورية الثالثة و تحكيم المصالح الخاصة" يصبح الصمت داخل القاعة ثقيلاً. إن بحث مادة التاريخ ليس سوى واحداً من ستة امتحانات كتابية عليك اجتيازها للوصول للامتحانات الشفهية. في انتظارك إذن تقديم شفهي مدته خمسة عشر دقيقة تتبعه أسئلة حول مواضيع مثل "البرجوازية الصينية على الضفاف في فترة ما بين الحربين" أو "جمهورية أرويت". لكن ذلك كله بالنسبة لك سيتم خلال عامين ، و بالأحرى ثلاثة. إنه الوقت المحدد لك لتمتلك ناصية هذا العلم ، أو على الأقل ما يكفي ليظن الآخرون أنك تجيده.

بعد ساعتين تختفي أستاذة التاريخ وسط حشد طلاب الفصول التأهيلية الذين يتعجلون الخروج. لقد وجدت الفرصة لتعطيك قائمة مكونة من صفحة و نصف الصفحة تضم المؤلفات الأولى الأساسية التي لن تستطيع الاستغناء عن قرائتها. أنت لا تعرف أي من الكتاب المذكورين و العناوين وحدها

تعد بساعات من القراءة الشيقة. أنت لا تزال بريئاً. لكن عما قريب سيصيبك الذعر من هذه القوائم المرعبة. تحسب عدد المؤلفات بعصبية و تختار منها واحد أو اثنين لتشتريها من ساحة سانت ميشيل و تقرأها قراءة سريعة.

تجمع حاجياتك و تنضم إلى زملائك بالخارج. هنالك ينتظر الطلاب القدامى و هم مغتبطون من حظهم. يقومون بإقناعك ، بمساعدة الكتب المعروضة للبيع ، بضرورة الاطلاع على الكتاب المذكورين في القائمة خاصة أولئك الذين يمكنهم توفيرهم لك بسعر زهيد. هم لم يمّسوهم البتة. أنت لن تفتحهم أبداً. فقط الأوائل منها فقط ، لترى. بعد ذلك سرعان ما ستغرق في الكتب ، و المواضيع و المحاضرات التي يجب عليك معرفتها فتتخذ التدابير اللازمة بسرعة. قوائم المؤلفات تغذي سلة المهملات الممتلئة أصلاً بمسودات الرياضيات و بطاقات المعلومات التي أعدها الزملاء.

يتدافع طلاب الفصول التأهيلية حول الباعة ، يبحثون عن النصح ، عن التشجيع ، بل عن علامة تبشر بإمكانية النجاة من هذه الفصول التحضيرية. لقد ارتعبوا مثلك تماماً بخُطب محاضرات الرياضيات و بمطالب المؤرخة. تبعد قليلاً و تتناقش مع شابة من فصلك. إنها تدعى جولي و هي آتية من مؤسسة باريسية كبرى. النظرات المواربة على تنورتها ذات الثنيات تنبأك بانبهار الشباب من حولكما بسحرها. اتكأت بفتور على الحائط لتحدثك و عيناها اللامعتان تستقران على وجهك. لقد قرأت عدداً مقدراً من الكتب الذي ذكرتها المؤرخة. لكن ، من القدر البسيط الذي تمتلكه من معلومات تستطيع الحكم على أن ثقافتها تبدو أكثر غنىً من ذلك. إنها تتنفس ذكاءً. تشرح لك ما دفعها للإلتحاق بهذه المدرسة و هي الذكية. والداها التقيا عندما كانا طالبين بالفصول التأهيلية العلمية. لم يكن باستطاعتها الإفلات من حثهم لها. التحقت بالفصل التأهيلي دون أن تكون مقتنعة بذلك تماماً. في هذا اليوم الأول تحس بالتردد. تحس بأنه سرعان ما سيكون الأوان قد فات للتراجع و التسجيل بالسوربون. صديقها الحميم حزين لعلمه باختفائها لمدة عامين على الأقل في عالم مجهول. هي تريد دراسة التاريخ. لا شيء سوى التاريخ. لا تستطيع تخيل نفسها و هي تمضي الساعات الطوال في دراسة الرياضيات و الاقتصاد. إنها لا تهتم بذلك. لذا تدع لنفسها فسحة عدة أيام لاتخاذ قرار.

شكوك هذه الشابة تصيبك بالقلق. أنت تخرجت من مدرسة ريفية صغيرة و لم يدفعك أحد للإلتحاق بالفصول التأهيلية. لم إذن قمت باختيار أصعب الخيارات ؟ أنت بالتأكيد لن تصمد بعيداً عن مسقط رأسك أكثر من بضع أسابيع. لكنك ستواصل حتى تستنفد كل إمكانياتك لكي لا تندم بعد ذلك. أنت تخاف كثيراً من تأنيب الضمير.

أستاذ العلوم الاجتماعية قد دخل بالفعل لقاعة و يدعوك بأن تلزم مقعدك. هو بدوره سيتحدث لساعتين. سيقدم خلالها برنامجها و متطلباتها. و المنهج. و الامتحان. لكن الكيل قد امتلأ و فاض بما قدمه من سبقه. تنصرف أنت و حقيبتك تحوي قائمة مؤلفات جديدة. هذا الأستاذ قصير القامة و الذي يرتدي سترة غامقة و يمسح جبينه بانتظام بمنديل قماش ، يختفي ايضاً خلف باب القاعة 5. يترككم ، زملائك و أنت ، مدركين لعظم المهمة الملقاة على عاتقكم. تعود لغرفتك و أنت تحس بالحيرة و

الضياع. بعدها تذهب لقاعة الطعام. تتشارك الوجبة مع بعض طلاب صفك. إنهم يتحدثون عن آخر كتاب لميشيما. من هو ميشيما؟ أنت تجهل ذلك! بعد بضع دقائق تتجراً و تطرح السؤال الخجول. يوضحون لك بلطف أنه كاتب ياباني. لقد انتحر. كان شاذاً. هذا هو كل شيء. يندهش البعض من جهلك و يتمنون لك أمسية سعيدة و هم يبتسمون بعطف. و أنت تعود لغرفتك تظن أنك قد أخطأت. أنت لست في مكانك الصحيح هنا. يعبر قط الممر. تخلع ملابسك و تفكر مع ذلك بانك لم تفقد كل شيء. أنت تؤمن بذلك. ستناضل للوصول إليه.

حروف أول

(الباب الرابع)

"كل نظرة للأشياء ليست غريبة ، هي

غير حقيقية"

بول فاليري ، "كما هي"

أعطاك أستاذ اللغة الفرنسية مهلة حتى بداية شهر ديسمبر لتسلمه بحثاً. لقد قمت حتى الآن بتسليم بحث في الاقتصاد ، في علم الاجتماع ، في الفلسفة ، في التاريخ ، في الرياضيات. بعد الانتهاء من كل ذلك ، لن يتبق لك وقت لدراسة الأدب. منذ التحاقك بالفصول التأهيلية ، لم تعد تقرأ. لم تعد تملك حتى دقيقة واحدة تخصصها لشيء قليل النفع. بالطبع أنت تقضي صباحاتك في الاطلاع على بطاقات المعلومات و ملخصات الكتب. لكن الأمر يختلف. و مع ذلك ، ففي نهاية الأمر ، ما فائدة الأدب ؟ ما الذي يستطيع فعله ؟ ما هو الأدب ؟ هذا هو بالتحديد موضوع البحث المفروض عليك.

هنالك تضارب في موقفك تجاه الأدب. الأدب بالنسبة لك شيء مقدس ، و هو يتمتع بنوع من السلطة. لكنك تنظر إليه بمنظار التفضّل ؛ بمنظار من هو أعلى إلى من هو أدنى : هو مصنف ضمن الأشياء التكميلية و قد طغت عليه العلوم الإنسانية و أصبح على هامش الحقل الاجتماعي بسبب اقتصاد السوق الذي يبدو للجميع ، بدرجات متفاوتة ، أنه أكثر أهمية من الأفكار. و في نهاية الأمر ، أدرس لتثقيف نفسك أم لتحصل على راتب معتبر ؟ ما الفائدة من الأدب ؟ في أغلب الأحيان لا فائدة له على الإطلاق. هو يبدو أحياناً كأثر من الماضي ... كمفارقة تاريخية في الحياة العصرية. إن الأدب بحاجة للسرية و الهدوء و البطء. بيد أن المجتمع الحديث ينتهك حرمة هذه العناصر الثلاث. السرية لم يعد لها وجود. وسائل الإعلام و الإنترنت تلعبان دوراً حاسماً. إضافة لكل ذلك ، نحن نعيش في ضوضاء معلومات دائمة. إذن ما الفائدة التي يمكن أن يعود بها علينا الأدب ؟

لم نكتب ؟ في الموضوع الذي تم تكليفك بكتابته ، عليك أن تثير قضية العائد أو المردود. المؤلفات ذات المبيعات العالية هي التي تظهر أكثر في الواجهة : التراجم ، كتب التشهير. لهذا السبب تعاني كتب البحث أكثر من غيرها و تبدو مرفوضة. أنت تؤيد فكرة أن عدد القراء لا يدل على جودة الكتاب المطلقة. فإن كان من غير الممكن طبع اي كتاب لم يلق نجاحاً فورياً ، فلن يكون هنالك إبداع أدبي.

ليس هنالك مقياس معين. لكن المجتمع يمتلك أدوات لتعجيز الأدب : نحن في عصر أصبحت فيه اللغة مجرد وسيلة للتخاطب و الاتصال.

أفضى الجدل حول محاضرات الأدب إلى نقاشات مطولة داخل قاعة الطعام. بنوا يؤيد البيت الرابع و الخمسون بعد المائة من قصيدة الفن الشعري : "إن ما نتخيله يتم التعبير عنه بوضوح ، و الكلمات التي نريد التعبير بها تأتينا بسهولة." مثله مثل بوالو ، هو يعتقد أن اللغة لا تلعب دوراً في الإبداع و تظل مجرد عنصر ناقل للمعلومة. لكن بنوا مخطئ. إن اللغة الأدبية تكشف بدلاً من أن تعطي. تيبو يؤيده في ذلك و يستند في ذلك على لوكريس. إن كان الفيلسوف اليوناني قد اختار الكتابة الشعرية ، فذلك لرغبته في خداع القارئ و توصيل نظرية المادية الجافة بسهولة ؛ تلك النظرية التي كانت ستحرم القارئ من مكافأة قريبة.

لكن تيبو مخطئ هو أيضاً. فاللغة لا تحوي كل شيء. و الاعتقاد بأن الكاتب ليس عليه سوى أن يروي ، يعني الاستسلام لوهم التلقائية. على الكاتب أن يبتدع و يفصل لنفسه لغة أخرى داخل اللغة نفسها. و الأسلوب ليس محايداً و هذا هو ما يميز الأدب. أنت تدحض الفكرة التي تقول بأنه لو كان لوكريس مقروءاً حتى الآن ، فالفضل يعود لسداسياته المنظومة بأسلوب مقطع طويل و مقطعان قصيران أكثر من كونه يعود لفكرته الذرية عن العالم. فالعالم يرى فيه شاعراً أكثر من كونه عالماً. إن تيبو مخطئ ، بالتأكيد. إنه سيجعل من هذه الفكرة النقطة الأساسية في البحث الذي سيقدمه. ذلك عين الخطأ. فدور اللغة لا ينحصر فقط في كونه ناقل للمعلومة. على الأقل فيما يتعلق بالأدب. إن الإنسان لا يختار الكلمات بالصدفة. فمثلاً يعدل القارئ الفكرة الأساسية و يفسرها على هواه ، تقوم الكلمات بتحريف المضمون. ليس هنالك ما هو جديد في هذا لكن هنالك ما هو منسي. ستغوص هذا المساء في قراءة لكتابات أمبيرتو إكو لتقتنع نفسك بذلك.

لكن هنالك ما هو أسوأ : ثقافتك التلفازية المرئية تغيّر مفهوم العلاقة مع الأدب. فالقناة التلفازية ليست محايدة و هي تؤثر على الرسالة المراد توصيلها بإفكارها. ما يحدث هو مخاطبة أصغر قاسم مشترك. المعلومة المقدمة تقوم بتصفية الرسالة من تعقيداتها. من حينها لم يعد المرء يكتب إلا لأنه لا يريد أو لا يستطيع الكلام. أنت مع ذلك تحب مشاهدة التلفاز. تفتقده في جحيم الكتب هذا. كم من كتب رياضيات و ملخصات علوم اجتماع لن تدفعها مقابل فيلم أمريكي واحد ذو ميزانية ضخمة ؟ شيء تافه يستطيع تغيير أفكارك. إن صار لديك وقت قد تذهب للسينما نهاية الأسبوع القادم. حالياً لم تستطع إقناع زميليك. و عليك أن تقرأ. تقرأ لتعد بحثك. تقرأ لتشخذ عرضك.

إن أستاذ اللغة الفرنسية شخص مقيت. أحياناً يضع كراسات الواجبات داخل سلة المهملات ثم يدعو الطلاب للذهاب لأخذها بنهاية المحاضرة. أنت تعتقد بأنه مخطئ بفعله ذلك. هو بالطبع فتح أعينكم على قوى الكلمات الحقيقية. حدثكم عن الكاتب كونه مستكشفاً لعوالم ممكنة. وصف لكم العمل المسرحي على أنه معمل للكلام. روى لكم سلطات الساحر و الشاعر و القديس و الطبيب. أنت تعترف له بالجميل لصنعه ذلك. اهتمام ... استراحة خلال المحاضرة ... غزارة في المعلومات ...

محاضراته الأولى كانت رائعة. لكن الجو العام تدهور بسرعة شديدة. إنها إحدى خيبات أملك في مطلع العام. هذا الرجل غير لطيف بالمرّة. إنه يحتقر الطلاب. زجر. سب. إهانات. مزاحه يتركز دائماً على الجنس. دون لباقة. مزاح ثقيل. مكرر. باختصار ، بعد فترة قصيرة ، أصبح يضجرك. تغرق في قراءتك. أشار عليك كائنات بالعديد من الكتب. هو يفكر في خطر القراءة. هل يستطيع الكتاب أن يقتل ؟ إن إيما بوفاري و دون كيشوت شخصيتان مفقودتان بسبب الأدب. بالطبع يمكننا مثلهم الموت بسبب الإفراط في القراءة. مع ذلك فالكتابة فعل متناقض. إن التسمية و الوصف يتيحان للساحر تخفيف الألم. هنالك فعالية رمزية للأدب تتيح له فرصة مداواة المعاناة و السيطرة عليها بإحكام.

كل هذا يتجلى لك ، بدرجة وضوح تتفاوت حسب الوقت و حالتك المعنوية. لحسن الحظ اليوم هو مساء الجمعة و أنت تستعد لمغادرة الداخلية ليومين. ستستطيع النوم. لكن ليس كثيراً. الاستراحة الأحذية هذه ليست فترة راحة حقيقية. أنت في الفصل التأهيلي و عليك أن تدرس. تخشى تجرّ أولئك الذين يقولون صباح الاثنين أنهم قرأوا أكثر من الآخرين ، كما تخشى ادعاءات أكثر الطلاب اجتهداً ، الذين يتظاهرون بأنهم استراحوا خلال عطلة نهاية الأسبوع. لا تبعد إذن كثيراً عن مكتبك من صباح السبت و حتى مساء الأحد.

في الوقت نفسه ، تمثل هذه الوقفة تغييراً شافياً. أنت ستري والديك من جديد. هما يجيدان التحدث عن مواضيع أخرى لا صلة لها بمؤلفات الماضي العظيمة. يا للحرية ! بالطبع ستلاحظ أمك شحوب لونك. سيقلق والدك على انقطاع شهيتك. لا شئى جدّي. هما يشهدان التغيرات التي تطرأ عليك دون أن يستطيعا فعل شئ حيالها. إنهما يعتقدان أنك أصبحت شديد الانغلاق في عالم مدرستك المقل و أن هوس الامتحان تملكك بصورة خطيرة. لكنهما يعتقدان أن هذا قد يكون شرط نجاحك. هما يخشيان فقط أن يكون ذلك على حساب سعادتك. لذا يودان صرف افكارك عن عالم المدرسة خلال هذه العطلة. يجعلانك تستمع لآخر اسطوانة صدرت. كرسي الجلوس ... العائلة ... و في نهاية الأمر التعب. ستستغل قطار العودة. ياله من زمن تم إهدراه ! سيكون لزاماً عليك تعويض التأخير المتراكم خلال هذين اليومين. لهذا السبب لا تعود لمنزلك كل أسبوع بل تقضي أحياناً عطلة نهاية الأسبوع متجولاً داخل ممرات الداخلية.

المشكلة الأساسية هي مشكلة الملابس المتسخة. عليك الموازنة بين كمية الملابس المتبقية داخل دولابك المتخلخل و بين عدد الأسابيع التي تقضيها دون الرجوع لمنزلك. لكن هذا ليس هو السبب الوحيد الذي يدفعك للبقاء بالمدرسة. بخروجك من الأسوار تكتشف وجود حياة أخرى خارج الداخلية فتمزقك الشكوك من جديد. من هم في مثل عمرك من الشباب يمرحون و يتعانقون. لم لا تستطيع أنت فعل ذلك ؟ لم لا يحق لك عيش حياة شبابية هانئة كما يفعل طلاب الكليات ؟ قد يكون هنالك من يحاول إفساد "أجمل سنوات عمرك". تفكر في جولي و في أولئك الذين غادورا منذ الأسابيع الأولى. أليسوا سعداء بعيداً عن هذه الأسوار الداكنة ؟ أنت لست تعساً لكن ألن تندم يوماً و تعتقد أنك

ضللت الطريق بالتحاقك بالفصول التأهيلية؟ شئ ما يقنعك بعكس ذلك. لا تعرف ما هو ... قوة ما تدفعك للتقدم. لذا ستنتظر في هذا الأمر لاحقاً.

أحياناً تقضي عطلة نهاية الأسبوع بكاملها متجولاً بين الكتب التي نصحك بها أساتذتك. الداخلية مظلمة. باهتة. لحسن الحظ أنت لست وحدك تماماً فكانتان لن يعود لمنزله بنهاية الأسبوع. يدعي أن ولديه يقطنان محافظة بعيدة عن المدرسة. إن في ذلك مضيعة للوقت. لكنك تعرف أنه لم يعد يحتمل الضغط الذي يمارسه عليه. لقد ذهب أحد أيام الجمع للاحتفال بعيد مولده. في يوم الأحد كان أكثر انهياراً من المعتاد. شديد التفكير. قلقاً. مكتئباً. سألته عن حاله فأجابك بأنه ليس بخير و ساد بإجابته تلك صمتاً ملاً المكان. لن تحصل منه على معلومات أكثر من ذلك. لقد قطع كانتان على نفسه عهداً بعدم العودة لمنزله قبل العطلة. مع ذلك هو يفكر فيه. أحياناً تنتابه حالات سرحان خلال الأسبوع. هيئته النبيلة ، و الوقورة تظلها أحياناً لمحة مريضة. يلتقي نظره بنظرك. يفهم و يطمأنك بابتسامته. لكن عيناه تخونانه بالحزن الذي تفصحان عنه. إنه تعيس. الأمر واضح. لكن ما الذي يمكنك فعله له؟ إنه لا يصرح بشئ. يحتفظ بداخله بهذا البؤس. إنه يلعن والديه ، مثله الأعلى في طفولته. لا يهاتفهما. يرسل لهما رسائل ... قصيرة. تتلوها ردود ... طويلة. لا يقرأها.

حلّ أول

(الباب السابع و العشرون)

"العاقل هو من يعيش ما يحق
له أن يعيش لا ما يستطيع أن
يعيش"

سينيك

هنالك تأخير مقلق. لقد عدت بالأمس للداخلية في ساعة متأخرة من الليل و نمت في الحال. استيقظت على صوت المنبه و ذهبت لقاعة الطعام و ها أنت ذا تبتلع الشطائر متزوداً لساعات الفلسفة الست القادمة. في أيام الامتحانات ، كانتان هو دائماً أول من يملأ صينيته بقطع المربي الصغيرة بكل أنواعها. لكنه ليس هنا هذا الصباح. لقد لاقيت صعوبة في النهوض من فراشك لذا فعدم وجوده لا يقلقك. حياتك محكومة بالعادات و ليس من النادر وقوع حدث يربك روتينية وجودك المطمئنة. هذه المفارقات ليست شاذة و يكفي الانتظار لتعود الأمور لنصابها. لكنك قلق هذا الصباح. يلزمك دائماً خمسة عشر دقيقة من الانتظار قبل أن تحدّث نفسك باحتمال وقوع حدث خطير. تمر الدقائق. تستمر في الأكل. تطرد فكرة أن يكون مكروهاً قد حدث. غير أن قلقاً خفياً عسكر في معدتك. الأمر ليس طبيعياً. هنالك شئ غريب في الأمر. مع ذلك لا يبدو أن أحداً قد لاحظ هذا الغياب. أما أنت ، فهو يربك.

تغادر قاعة الطعام و تصعد السلالم بأقصى سرعة. تعدو منطلقاً في ممر الداخلية و تطرق باب كانتان. لعله لم يستيقظ ! و الاختبار سيبدأ خلال خمسة دقائق ! سيكون لزاماً عليه ارتداء ملابسه بسرعة البرق. المسكين ... لا أحد يرد على طرقاتك. أنت تلج. النور مطفاً. يخرج طالب فيزياء من حجرته بثياب النوم ليحتج على الإزعاج. يتمسح القط بقدميك مستجدياً مداعباتك. تبقى متوجساً أمام المدخل المغلق. لا تفهم ما يجري. قد يكون نزل فعلاً إلى قاعة الدرس. إن لم يكن قد قرر عدم الحضور. لقد سمعت بأن بعض الطلاب قرروا عدم الجلوس لهذا الامتحان الأبيض لأنهم يجدونه مرهقاً. إنهم يفضلون الاحتفاظ بقواهم لليوم الحق. هم لن يتعرضوا لأي عقاب. اللحظة الوحيدة التي يخشونها هي لحظة الامتحان الختامي. لكنك تعتبرهم أغبياء إذ أنك لا تعتقد بعدم جدوى المران الإضافي. كلا ، أنت مندهش فعلاً : لا يمكن أن يكون كانتان قد قرر عدم حضور تقديم بحث الفلسفة. قد يكون نزل فعلاً.

تجرجر نفسك على الدرجات. ازداد الفلق عن ذي قبل. تركض نحو قاعة الإنشاء. تتمنى أن تعرف ... و أنت الآن متأخر قليلاً. تدخل القاعة. تبحث بناظريك عن كاتنان ، لكنك لا تملك الوقت الكافي لإيجاده إذ أن الأستاذ اشار لك بالجلوس. تخرج أوراقاً و تبدأ بالتفكير في موضوع اليوم : " هل يمكن الخروج من المأساة؟" أنت تعاني من إلزام نفسك بالتركيز. تقلب النظر في غابة الرقاب المزروعة أمامك. كلا. كاتنان لا وجود له هنا. تعيد قراءة الموضوع و تبدأ في الكتابة. إن المأساة هي موضوعك المفضل و تولع بالتحدث عن الإيرينيس ؛ آلهة الشر الإغريقية. تملأ صفحات من الآراء المتحمسة حول الحلول الممكنة للخروج من المأساة.

قلمك يسرّب و الحبر يسيل على أصابعك. تختم واجبك و أنت تتألم. بالكاد لاحظت مرور المراقب المساعد و أستاذة التاريخ اللذان حضرا ليتهاامسا مع الفيلسوف. تسلّم نسختك و تطفو من العالم المصطنع الذي ابتدعته خلال الست ساعات الماضية. لقد كان المنبه وحشياً : بالكاد عبرت عتبة القاعة لتمسك بك المؤرخة و تسحبك على جانب. هي تبدو منزعة و نظرتها مضطربة. إنها تتردد. أخيراً توجه عينيها مباشرة نحو عينيك و تسألك إن كان كاتنان صديقك. تومئ برأسك. لا تجد حتى القوة التي تتمم بها بكلمة. ما الذي يعنيه هذا السؤال ؟ هذا المشهد يبدو لك مريباً. ليس من عادة الأساتذة أن يقلقوا على غياب لحظي لطالب. أم أن الأمر بالغ الخطورة. تتخيل أسوأ الفروض و تصرعك ضربات قلبك.

لا تستطيع الأستاذة إخفاء انزعاجها. حركاتها خرقاء نوعاً ما. عليها التخلص من عبء ثقيل فتندفع في فعل ذلك. تخبرك بدون مقدمات بأن كاتنان قد مزّق شرايينه في حوض استحمام والديه ليلة الأحد. لقد مات بعد ذلك بقليل. تطلب منك اختلاق عذر لإخفاء هذا الحدث عن زملائك حتى لا ينزعجوا في اليوم الذي يسبق الامتحان. إنها تقرأ وقع كلماتها على وجهك. أنت تحتفظ برباطة جأشك. لكنك تخنق. حقيقة أنت لا تفقه الكلمات التي قالتها. شرايين ... حوض استحمام ... موت. أنت مصدوم. تود المؤرخة سحبك إلى إحدى ماكينات صنع القهوة "للثرثرة قليلاً" لكنك ترفض بتهذيب و تصعد بهدوء إلى غرفتك. لا. أنت لا تفهم معنى هذه الكلمات. هي ليست حقيقية. تستلقي على سريرك بالقرب من القط. تتخيل قليلاً قليلاً حوض الاستحمام ذلك. ترى صديقك و هو يقطع شرايينه. و دمه يسيل على طول يده. الأمر يبدو لك منافع للعقل. كيف يمكن لما حدث أن يكون حقيقياً ؟ تتخيل والديه. تعيد التفكير و تتذكر سباب زملائه له يوم الحفل. حينها تكتشف ما لم تتمكن من رؤيته. يأسه ... ألمه ... تجهش بالبكاء. هذا رهيب. لم يبق سوى الألم في معدتك. كيف تستطيع العيش من جديد ؟ القط ينظر إليك بانبهار. يصدر مواءاً و يتمسح بك. تحمله و تضمه بين ذراعيك. يالك من تعس ! تتضرع لكل الآلهة لتحمل إليك إشارة تنفي وقوع هذا الحدث. تضحي بكل شئ لتراه يدخل غرفتك. لكنك تشعر مسبقاً بأن ذلك مستحيل. أنت لن تراه مطلقاً من جديد. ماذا ستفعل. لا تستطيع. لن تستطيع.

أنت تنتحب. تنوح. هذا فظيع. لن تنهض من سريرك هذه الليلة. تتصل بوالديك و تعود لمنزلك. فليذهب امتحان اللغة الفرنسية إلى الجحيم. لم يعد هنالك ما يثير اهتمامك. لم يعد يهملك شيء. العالم

فارغ. و أنت أيضاً. لم انتحر ؟ كيف استطاع ؟ ألم يفكر فيك ؟ لم هذا الرفض للحياة ؟ لكي لا يعاني ؟ لا يحط من قدره ؟ أنت لا تعرف ما دفعه لاختيار ذلك ؟ اختيار غير مؤكد لكنه ممكن. هنالك خيارات تبتلع حياةً بأكملها. يدك ترتجف و أنت تقلب صفحات علاقتكم السابقة. صار لزاماً عليك شطبه من حياتك : هي ليست سوى مسألة لحظات.

لم لا تزال أنت حياً ؟ لم لم تفكر أبداً بإنهاء حياتك بهذه الطريقة ؟ ما الذي يربطك بالعالم حتى الآن ؟ ابنك الذي لن يكون أبداً ؟ والداك ؟ كلا ، أنت مفطوم. مكالماتهم الهاتفية لا تزال تنال تقديرك لكن ليس بنفس القدر السابق. في يومٍ ما لاحظت أنك لم تفكر فيهما طوال اليوم. بعدها انقضى أسبوع كامل دون أن تفكر فيهما. قلت لنفسك بأنهما سيكونان مثلك ؛ لم يفكرا بك. لقد قطعت الحبال التي تربطك بهما. نعم. لقد تغيرت. لم تعد من كنته و الآن لا تعرف من ستكونه. أنت ضائع. كلا ، لم يعد هنالك ما يربطك. تستطيع بكل بساطة أن تشنق نفسك هذا المساء ، لكن ... أستواتيك الشجاعة لفعل ذلك ؟ هذا الأمر مشكوك فيه. لذا عليك مواصلة العيش. وحيداً و منفرداً. إنه أمرٌ رهيب. من الصعب القيام به. عيناك توخذانك. تنتحب من جديد.

يبدو أن هذه الدموع حررتك. بالتأكيد. لكنها جديدة ، أنت لم تيك هكذا من قبل. هذه العصارة التي تجري على طول خديك تنزع منك ما تبقى من حياة. القط يموء. ينظر إليك بعينيه الصغيرتين الخضراوين. هو لا يبالي. لديه سبعة أرواح و لا يخشى فقدان آخرها. يزم شواربه التي فوق شفثيه و يراقبك. يغرس مخالبه في بنطالك ثم يقوم بسحبها. إنه يبدو غايةً في السرور. يمسح رأسه بذراعيك. يداعب يدك و ينجح حتى في نزع شبه ابتسامة منك. تضمه إليك. تغمض عينيك. ترى أصابعك ملأى بحبر ... أحمر.